الفصل الثاني والثلاثون

النصر الأخير

عندما تأكّد لصلاح الدِّين أنّ سفينة ريتشارد قد جلت أخيراً عن فلسطين، سجَّل أهمية تلك اللحظة بإعلان نيّته الحجَّ إلىٰ مكة شكراً لله. بهذا الحج، يتم السلطان دينه فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام (بعد الشهادتين وإقامة الصلاة، وصوم رمضان، وتأدية الزكاة) التي بُني عليها الدين الإسلامي. والآن وقد أصبح الطريق مفتوحاً أمام الحجيج المسيحيين لزيارة الضريح المقدَّس في أورشليم، بات طريق الحج أيضاً آمناً من خطر قطاع الطرق الصليبيين انطلاقاً من سوريا ووصولاً إلىٰ الديار المقدَّسة في الجزيرة العربية. وحتى يطمئن صلاح الدِّين، أرسل ابنه الملك الأفضل إلىٰ قلعة الكرك وهي الحصن المنيع الذي كان لرينولد دو شاتيون لتفقد استعدادات كتيبته.

كان على السلطان أن يعاين المملكة الجديدة التي ظهرت إلىٰ الوجود قبل رحلته إلىٰ الجزيرة العربية فانطلق في عدد بسيط من الحراس ومرّ بمحاذاة المدن الساحلية التي كانت قد سلّمت للعدو غير أنّ عسقلان استحوذت على تفكيره. كان قد بعث مائة عامل نَشِط لتهديم الأسوار على أن يلتحق بهم عدد مماثل من المهندسين المسيحيين للمشاركة في عملية التهديم. وأصدر ريتشارد

لرجاله أمراً غامضاً يقول فيه: «يؤذن لكم بالمغادرة فور انتهائكم من الهدم»!

عاد صلاح الدِّين إلىٰ أورشليم بعد جولته القصيرة على القلاع الواقعة في أقصى الجنوب واختلى بنفسه بعيداً عن «طريق الآلام»، وتسنّى له التفرّغ لقضايا الدولة الأكثر سلماً. كان صلاح الدِّين قد سرّح جيشه ما خلا الجزء الأساسي منه وتفرّغ لمعالجة بعض المسائل الإدارية الروتينية وكذا بعض القضايا الدبلوماسية. أما الأعمال العسكرية فقد كانت منوطةً بالدرجة الأولى بالمهندسين فأوكلت لهم مهمات إصلاح الأضرار التي ألحقت بمنشآت المدن وتحصيناتها. وفي أثناءِ إقامته في أورشليم، أمر ببناء مستشفى ومدرسة في المدينة. وتخلّلت حياة السلطان لبرهةٍ من الزمن شهورٌ من الركود أو الخمول؛ فقد انغمس في بحبوحة الأُلفة العائلية وإعجاب شعبه به.

في تلك الأثناء، استعد ابنه الملك الظاهر لمغادرة المدينة المقدَّسة بغية استئناف واجباته كحاكم لحلب. كان ابن صلاح الدِّين الثالث وقرّة عينه ولقّب بالمشمِّر إذ إنه قال: «وأنا كذلك مشمِّر» عندما أقدم أبوه على تقسيم الإمارات على أخويه الأكبرين. وقد استقرّ مسبقاً في نية صلاح الدِّين أن يجعل من ابنه هذا البالغ التاسعة عشرة من عمره ولياً لعهده. بعد أداء الصلاة في مسجد قبّة الصخرة، طلب الملك الظاهر أن يؤذن له برؤية أبيه لتوديعه. وعندما انفردا، أبدى السلطان اهتماماً أبوياً بعافية ابنه وبنجاح مهمته الجديدة وبتبوء ابنه للزعامة. قال صلاح الدِّين لابنه:

«أوصيك بتقوى الله تعالى فإنّها رأس كل خير. وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سببُ نجاتك. وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها؛ فإنّ الدم لا ينام. وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم. وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة وأكابرها فما بلغتُ ما بلغتُ إلاَّ بمداراة الناس. ولا تحقد على أحدٍ، فإنّ الموت لا يُبقي أحداً.

واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يُغفر إلاّ برضاهم. وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم»[1].

في تلك الأثناء، وصل أوّل وفد من الحجاج المسيحيين إلىٰ مشارف المدينة. كان هؤلاء قد قاموا برحلة شاقة ومريعة عبر سهل الرملة إذ كانوا غير مسلمين ولم يكن في حوزتهم ما يحميهم ما عدا رخصة المرور التي سلِّمت إليهم في عكّا. وقد كان على رأس هذه الدفعة الأولى أندرو دو شوفيني، وهو راهب عسكري من كلوني، كان ضامن المعاهدة التي أُبرمت مع تانكريد أوف صقلية كما أنه أبلى بلاء حسناً في حصار عكّا. وقد حدث أن نام أعضاء فريق الاستطلاع في غابة فلم ينذروا القادة المسلمين باقترابهم. وأدّى ذلك إلىٰ وقوع الوفد في قبضة ألفي جندي مسلم أحاطوا بهم من كل جانب خارج أسوار المدينة. كانت تلك اللحظة مشحونة بالتوتر الحاد. علم صلاح الدِّين بهذا الحدث من بعض الذين كانت صدورهم تغلي حنقاً ووجدوا فرصة ثمينة تسمح لهم بالثأر لمقتل أبنائهم وإخوتهم. جعل صلاح الدِّين يهدئهم قائلاً:

ستكون وصمة عار وخزي في جبيننا إن نُقض العهد الذي أبرم بيننا وبين ملك إنكلترا بفعلنا. وسيصبح بعد ذلك صدق المسلمين محل ريبة إلىٰ الأبد.

أُذِن بعد ذلك للحجّاج الذين تملّكهم الروع بالاقتراب من أسوار المدينة. إلاَّ أن مسيحياً دقيق الملاحظة سجّل مدى قلق الجميع وخوفهم وهم يمرّون عبر صفوف المسلمين ثم لمّا قضوا آخر ليلة لهم في سفح الجبل: «عند مرورنا بينهم كانوا مكشرين وعابسين، أنظارهم المسلّطة علينا كانت تنبىء بالحقد الذي يضمرونه لنا في قلوبهم. فالوجوه مرآة القلوب. وكان رجالنا مربكين إلىٰ درجة أنّهم كانوا يتمنّون لو أنّهم يرجعون إلىٰ صور أو حتى إلىٰ عكّا التي غادروها قبل وقت قليل. وهكذا، أمضينا الليلة على سفح جبلٍ ما في حال من الذعر الكبير».

(1) ابن شدّاد، ص 238.

حاول ريتشارد في الواقع أن يحدّ من تدفّق الحجاج بعد مغادرته بفرض تأشيرة رسمية لزيارة القدس تُسلَّم في عكّا وتطّلع عليها السلطات الإسلامية. كانت تلك محاولةً جريئةً منه لمنع الفرنسيين من الزيارة بعد خذلانهم إيّاه وتخلّيهم عنه في معركة يافا وغيرها. وقد حاول في مسعاه المُسيء هذا أن يكسب مساندة صلاح الدِّين له.

أما صلاح الدِّين فلم يعِر أدنى اعتبار لنوايا ريتشارد، بل تجاهلها تماماً. وكان يعتقد أن على كل حاج قد وفّق لأداء الحج وزيارة المدينة المقدَّسة مغادرة البلد فوراً وبذلك يكون في غاية السرور عندما يقدّم كل غريب من المحتلين احتراماته ومن ثمّ يغادر. ثم ذهب السلطان إلىٰ أبعد من ذلك. فقد أبلغ رجاله بأن الوثائق الرسمية من السلطات المسيحية لم تعد إجبارية من بعد هذه البعثة الأولى من الحجيج. ثم نصب مراكز للجنود على طول الطريق المؤدية إلىٰ القدس، لا ليزرع الرعب في قلوب الحجيج المسيحيين، بل على العكس من ذلك، ليوفّر لهم الأمن والسلامة.

وفي المدينة المقدَّسة ذاتها، خرج صلاح الدِّين عن المعهود باستقباله الحجّاج المسيحيين. ثمّ شجّعهم على تقبيل صليب سيّدهم الحقيقي الذي حُمِل في معركة حطين ثم ضاع منهم، كما شجعهم على زيارة جبل صهيون وزيارة مكان الجلجة والحديقة. فعلى كل حال، ليس المسلمون هم الذين صلبوا منقذهم، حسب رواية الإنجيل، ويسوع نبيّ من الأنبياء في الإسلام. وقد دعا صلاح الدِّين هؤلاء الحجاج إلىٰ مائدته حيث أجرى معهم حديثاً ودياً، بعيداً عن الشكليات وأكرم ضيافتهم. كما أنّه بعث برسالة إلىٰ عكا تعكس كرم معاملته إذ جاء فيها:

«عندنا هنا أناس قد أتوا من بعيد لزيارة الأماكن المقدَّسة. وإنّ شرعنا ينهانا عن منعهم من ذلك».

ثم كانت البعثة الثالثة لزيارة المدينة المقدَّسة يقودها هوبرت والتر Hubert

Walter، أسقف سالزبوري، وهو من أعظم وأحكم رجال ذلك العصر، وهو من أصبح رئيس أساقفة كنتربري، ورجل العدالة في المملكة بعد عودته إلىٰ إنكلترا. وكان، إلىٰ جانب ذلك، جندياً صنديداً سبق له أن أتى إلىٰ فلسطين قبل ريتشارد كما كان خلال المحنة من أوثق المستشارين لدى الملك. استقبل صلاح الدِّين هذا الضيف الوجيه بكرم واسع ودعاه للإقامة في القصر الملكي. لكنّ الأسقف اعترض وقال في تواضع: «نحن حجّاج، ولا يليق لنا الإقامة في ترف».

ورغم ذلك، فقد رافق صلاح الدِّين الأسقف عندما ذهب لرؤية «الصليب الحقيقي». وبعد ذلك، أقام مأدبة على شرفه حيث اغتنم الفرصة المناسبة ليستفسر بشيءٍ من الفضول أي صنف من الرجال كان بالفعل ريتشارد.

فأجاب الأسقف قائلاً: «لن أقول إلاَّ ما يستدعيه الإنصاف وهو أن فرسان العالم أجمعين لا يضاهونه شجاعة وكرماً. فهو في كلّ الجوانب متميّز بكل صفة حميدة. وباختصار، حسب رأيي المتواضع، لو أنّ أحداً خاض في أخطاء فخامتكم، يأتي بفضائلكم مقابل فضائل الملك ريتشارد وينظر إلىٰ كليكما سويّة، لما وُجد رجلان غيركما في العالم يمكنهما منافستكما».

استمع صلاح الدِّين برحابة صدر إلىٰ هذا المدح المسهب، ثم قال بلطف: «لطالما أدركت أنّ ملككم رجلٌ على أعظم قدر من الشرف والشجاعة». وأضاف: «ولكنّه متهوّر، ولا أقصد بذلك الحماقة، إنّما كثيراً ما يدفع بنفسه إلىٰ المهالك. ويظهر عليه تهوّر كبير جداً في حياته الخاصة. أما أنا، فعلى الرغم من اتّساع البلاد التي أملكها، فإنّي أفضّل تولّي هذه الثروات الطائلة بالحكمة والاعتدال على أن أظهر الإفراط في الشجاعة والتهوّر».

ومع انقضاء المساء، كانت المشاعر الطيبة قد تعمّقت بين الرجلين. فدعا صلاح الدِّين الأسقف أن يسأل ما يشاء وسيؤتى سؤله. ونظراً لأهمية العرض، طلب هوبرت والتر الإذن في إرجائه إلىٰ الغد. عند صباح اليوم التالي، عاد

الأسقف للقاء الملك من جديد فاشتكي من أنّ أداء القدّاس الذي ترأسه مسيحيون سوريون في الضريح المقدَّس كان فاسداً. وعليه، طلب أن يُسمح لقساوسة لاتين وشمّاسين مكرّسين بشكل صحيح بالإقامة في أقدس أقداس المسيحية وأن يرسل عدد مماثل إلىٰ بيت لحم والناصرة.

قال الأسقف: «لهذا المطلب أهمية عظمى وإننا لنعتقد أنه يرضي الله».

فأعطاه صلاح الدِّين سؤله دون تردّد.

II

مـــاءٌ ودمـوع

مع اقتراب فصل الشتاء، كان صلاح الدِّين يتلهّف شوقاً للانتقال إلىٰ دمشق، مدينته المفضّلة حيث أقام عدد كبير من أفراد عائلته. فسار، عبر نابلس، إلىٰ القلعة العظيمة التي تشرف، من أعلاها، على الضفة الجنوبية لبحر الجليل، وهي قلعة شيّدها الصليبيّون ودعوها «بلفوار» ولكن صلاح الدِّين كان يعرفها باسم قلعة كوكب. مثّلت قلعة كوكب في نظر المسلمين قبل فتحهم لها «امرأة محصَّنة أو عذراء تستعصي على المريدين». وكذا كانت جميع القلاع الصليبية الهامّة إناثاً لدى المسلمين وكأنها تثير فيهم الرغبة وحب التملّك وهو ما يستدعي أحد الأمرين، إما أن تغازل غزلاً عفيفاً أَو أن تغتصب. ومن «كوكب» التي كان قد فتحها السلطان، نظر هذا الأخير باعتزاز إلىٰ الطريق التاريخي الذي سلكه إلىٰ معركة حطين المجيدة. كما نظر عبر الوادي إلىٰ قلعة عجون التي رفع صرحها سنة 1184م لإقامة نوع من التوازن في مواجهة «بيلفوار». وبعد تفقّد حامية كوكب، تابع طريقه إلىٰ بيروت ومنها إلىٰ دمشق التي حلّ بها أخيراً في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر 1192م.

عند وصوله، استقبلته جموع الرعية بابتهاج وتكريم عظيمين. وكانت

الهتافات تعلو باسمه أينما انتقل عبر الطرقات. وأنشد الشعراء أهازيج حفاوة بناصرهم وحاميهم المظفّر. فكتب أحدهم: «بسط جناح العدل على الورى، وأمطرت سحب جوده وكرمه على الأنام عطايا».

ولا غرو في أن تكون دمشق مدينته المفضّلة، فهي أقدم مدينة مأهولة في العالم وأجمل بلاد الشام. وحقاً كانت دمشق واحة كبيرة يلطّف جوّها نهر بردى الذي يتخلّلها وسط امتداد سهل الغوطة المزدهر. بيوتها المبنية من الطوب كانت ضاربة في القِدم حتى قيل إنها وجدت قبل نوح. وكانت كثيرة المكتبات والقصور. جامعها الكبير بفسيفسائه الرائعة لا مثيل له في الإسلام، وكانت قلعتها المفضلة لدى السلطان من بين كل قلاع إمبراطوريته. وفي جنائنها كتب الرحّالة العربي ابن جُبَير أنّها «قد أحدقت بها البساتين إحداقَ الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكِمامة بالزَهَر»[1]. لقد كانت جنة الشرق. وصدق المثل الشعبي القائل: «لو كانت الجنة الأرض، لكانت هي دمشق. وإن كانت في السماء، فإن دمشق صورتها على الأرض».

في هذه الجنة، التمّ شمل عائلة صلاح الدِّين. فقد رجع شقيقه العادل من مهمة تفقد الكرك وأطال البقاء فيها قبل الرحيل إلىٰ ممالكه الجديدة الواقعة ما وراء الفرات. وأتى الملك الظاهر ابن صلاح الدِّين من حلب وانضم إليهم ابناه الآخران وعائلاتهما. مدّت المآدب، ونُظّمت رحلات صيد إلىٰ منطقة الغباغب التي تبعد عن المدينة مسافة عشرين ميلاً نحو الجنوب وتزخر بالغزلان. وفيما كان صلاح الدِّين محاطاً بأولاده وزوجاته وجواريه وأحفاده، تعالت أصوات الغناء والأبيات الشعرية أيضاً، فقد بدأ السنّ يلقي بثقله على كاهل صلاح الدِّين. ومن الأبيات الشعرية المحبّبة إليه بيت يتطرّق لعادة يتّبعها رجال كبار في السن بصباغة شعرهم بخضاب أسود[2]:

---

(1) رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصّار، القاهرة 1955، ص 249.

(2) وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت 1971، 7/ 208.

وما خضب الناسُ البياضَ لقبحه وأقبحُ منه حين يظهرُ ناصلُهْ

ولكنه ماءُ الشباب فسَوّدت على الرسم من حزنٍ عليه منازلُهْ

وكلما ردّد هذا البيت من الشعر، شدّد على مقطع «الشباب قد ولّى» وشدّ نحوه حبيبته قائلاً: «أجل، تالله، لقد ولّى الشباب» وهو يطيل النظر في عينيها.

سكن السلطان واسترخى وسط هذا التجمّع العائلي المبارك. فاستعلم من وزيره عن عدد الأيام التي تعذّر عليه صومها في السنوات القليلة المنصرمة بسبب ضغط الحرب. لقد كان يرغب الآن بإتمام واجبه الديني. وعندما قدم وفد من الصليبيين لزيارته، أثارت وجوههم المحلوقة وشعرهم القصير ولباسهم المضحك خوف الصغار الذين سارعوا للاختباء وراء الستائر إلىٰ أن رحلوا، فضحك صلاح الدِّين من تصرفهم هذا. على الأقل، لم يكن الملك ريك المخيف هو من جاء لزيارته. فقد كانت الأمهات، في كل أنحاء فلسطين، يستخدمن اسم الملك الإنكليزي المرعب لتهديد أولادهن ودفعهم لإطاعة أوامرهن: «إن لم تنظّف غرفتك، سيأتي الملك ريك ويطبق عليك».

خلال أشهر الشتاء التي هطلت الأمطار فيها بغزارة وغطّت الوحول الطرقات، استسلم السلطان لحالة من الكسل الخادر. فألغى المآدب طوال أسابيع ولم يكترث ألبتة بالطعام فيما خلا الأرز المغلي بالحليب وبعض المرطّبات الخفيفة. وقلّص عدد زوّاره. وانقطع الحديث عن الذهاب إلىٰ مكة لتأدية مناسك الحجّ. وما أن بدت علامات المرض الأولى هذه حتى أرسل في طلب كاتبه ومستشاره؛ بهاء الدين من القدس.[1] ولكنّ الطقس العاصف على الطريق حال دون وصوله قبل تسعة عشر يوماً. هرع الكاتب لرؤية السلطان فوجد سيِّده سقيماً هزيلاً يعاني من سوء الهضم.

حاول بهاء الدين أن يبعث البهجة في روح سيّده قدر المستطاع. فخرج

(1) قارن بابن شدّاد، ص 241 - 242.

وإياه للترحيب بالحجيج القادمين من الحج ولكنه لاحظ عندما أصبحا في الخارج بين الحشود أنّ السلطان لا يرتدي زيّه المحشو أَو كزاغُنده. استغرب الكاتب لهذا الأمر فلطالما حرص صلاح الدِّين على سلامته عندما كان يخرج للملأ ولا يعرّض نفسه للخطر ولا سيما للذي يشكّله الحشَّاسون، وعندما لفت انتباه السلطان إلىٰ هذا الإغفال، اكتفى صلاح الدِّين باستدعاء المسؤول عن لباسه الذي لم يُعثر له على أثر.

قال بهاء الدين لنفسه بوجل من يرتقب شرّاً: «سلطان يطلب ما لا بد منه في عادته فلا يجده!». واعتبر الأمر إنذاراً بالشؤم. وارتدّ الرجلان على عقبيهما عبر طريق مقفرة وسجَّل بهاء الدين شعوره فيما بعد فقال: «كان قلبي يُرعَدُ لما قد أُوقع فيه من الخوف عليه».

في أواخر شهر فبراير (شباط)، انتقل صلاح الدِّين من حالة الخمول إلىٰ المرض ولازم سريره في المقرّ الصيفي في قلعة دمشق. ظلّ يعامل مستشاريه بمودّة حتى في حالة الكآبة ولكنه عجز عن ابتلاع الطعام وصعب عليه شرب السوائل. أتى خادمه يوماً بماء فاتر ولكنه أعاده لأنّه وجده شديد السخونة. جُلِب له كوب آخر من الماء فوجده شديد البرودة؛ واشتكى بقوله: «سبحان الله، لا يمكن أحداً تعديل الماء!».

أدار كاتبه وجهه والدموع تترقرق في عينيه وقال: «يا لها من شخصية عظيمة سيحبّها المسلمون. أي امرىءٍ آخر في مكانه كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره»!

قَصَد رئيس أطباء صلاح الدِّين الامتناع عن زيارة السلطان لعدة أيام كما لو أنه يشير إلىٰ أنّ حالته باتت ميؤوساً منها. انتشر خبر هذه النبوءة السيئة في كل أنحاء المدينة واتُّخذت الإجراءات اللازمة لتفادي تفشي الفوضى والبلبلة بين الناس. أخلى التجار محلاّتهم في السوق القريب خوفاً من أعمال السلب والنهب. شغل الملك الأفضل، ابن صلاح الدِّين البكر، الكرسي الملكي، في

أثناء سقم والده، في قاعة المآدب وباشر في محاولة كسب تأييد الأمراء له وأثار بذلك سخط البعض الذين اعتبروا سلوكه معيباً ووقحاً. سارع حاكما دمشق وصهيون (القلعة الضخمة شرق اللاذقية) لمبايعته وتبعهما آخرون بمن فيهم ثلاثة أمراء أكراد. وافق المشطوب نديب الوجه على مبايعته شريطة حصوله على هبة كبيرة من الأراضي. واشترط أمير آخر ألا يطلب إليه محاربة أي شقيق من أشقاء الأفضل.

في ما كان صلاح الدِّين يخضع للفصد ويعاني الأمرّين عند رشف ماء الشعير، رَتَل الأمراء أمام ابن صلاح الدِّين يبايعونه. تضمن قسم المبايعة «بنداً انفصالياً» ثلاثياً: «إن حنثت بقمسي، تصبح زوجاتي طالقات، وعبيدي معتقين، ووجب عليّ الحج إلىٰ مكة حافي القدمين».

في اليوم العاشر من مرض صلاح الدِّين، حُقن السلطان حقنة شرجية أحسّ بعدها ببعض الارتياح وتمكّن من شرب المزيد من ماء الشعير. وبعد فترة قصيرة، تعرّقت قدماه مشيرة إلىٰ تحسّن حالته. وما مرّت عدة ساعات حتى أعلن الأطباء والدهشة تأخذهم أن التعرق غزير للغاية بحيث ابتلّ فراشه بالكامل: هل حدثت معجزة؟ لكن في اليوم الثاني عشر، عادت حالته للتدهور، وبدأ يخالَطُ في عقله. انكبّ الشيخ الملازم على قراءة آيات من القرآن الكريم، ولا سيما الآية 22 من سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وتمتم المريض: «صدق الله العظيم».

تقول الرواية إن السلطان استدعى حامل رايته الذي رافقه في العديد من معاركه العظيمة وقال له: «أنت، يا من حملت رايتي في الحروب، احمل الآن راية موتي. ولتكن خِرقة وضيعة تحملهاعلى رمحك وتدور بها في كل أنحاء دمشق معلناً: عجباً لموت ملك الشرق. لم يستطع أن يأخذ معه سوى هذه الخرقة»!

في الرابع من مارس (آذار) من سنة 1193، أسلم صلاح الدِّين الروح. فسجّل أحد الكتبة: «رحمه الله وغفر له، فقد كان زينة الدنيا ومحط إعجابها».

غُسلت الجثة وكُفِّنت، كما جرت العادة، وشدّت ثيابه الخاصة ـ بما فيها سرواله وصدريته وقباؤه المميَّز بمعصميه الأسودين ـ في رزمة محكمة الإغلاق. اتّسمت إجراءات الدفن بالغرابة فقد تبيّن أن السلطان لم يكن يملك شيئاً ـ لا عقارات ولا بيوتاً ولا أراضي ولا جنائن ولا ذهباً أَو فضة في خزانته ما خلا ستة وأربعين درهماً نصيرياً أي أقل من ليرة إنكليزية. وبالتالي أجبر مساعدوه على استدانة بعض المال لشراء الضروريات واقترضوا ما مقداره نصف بنس لشراء «التبن الذي يُلتُّ به الطين» لتبطين قبره. استخدم قماش مقلّم لكسوة النعش. ووريت جثته الثرى قبل صلاة العصر في الحديقة القريبة من المقر الصيفي حيث صارع مرضه الأخير.

«فجع موته القصر والمدينة والعالم بأسره والله وحده يعلم مدى الأسى الذي خالج القلوب». كلمات سجّلها كاتبه الوفي بهاء الدين[1].

ازدحمت طرقات دمشق بحشود المنتحبين. وخلال الأربع والعشرين ساعة الأولى بعد موته، لم يؤذن بدخول القلعة إلاَّ للأُمراء والقضاة. في هذه الأثناء، نزل أبناؤه إلىٰ الطرقات لمؤاساة الرعية فقد كانوا في مصابهم الأليم كما وصفهم القرآن: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [سورة الأحزاب: 10].

وفي اليوم التالي، فتح الملك الأفضل الأبواب لاستقبال الوفود المُعزية. مُنع الشعراء، في البداية، من نظم أبيات الرثاء لسيّدهم فقد كان تواضع صلاح الدِّين من بين كل خصاله النبيلة هو الذي ترك الأثر البالغ في قلوب

(1) ابن شداد، ص 247.

معارفه ورعيته. أسّس في القاهرة ثلاث مدارس ومستشفى، وشيّد في القدس مدرسة ومستشفى وفي دمشق مدرستين. لم تحمل أيّ من هذه المؤسسات اسمه، ولذلك قيل عنه بأنه كان مديناً لرحمة الله بخلوّه من الخيلاء والعجب. كم كان مختلفاً عن ريتشارد!

بعد موت صلاح الدِّين، شعر بهاء الدين المفجوع الذي كان قد كرّس حياته لتسجيل مآثر هذا الرجل وبطولاته بأن الحياة اتسمت بطابع سريالي. فأنشد معبّراً عن شعوره:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنّها وكأنهم أحلامُ

كان لا بد، في نهاية الأمر، أن يُمتدحَ صلاحُ الدين؛ فعبّر أحدهم عن تقديره بقوله: «صحيح أنه كان يمسك بزمام مملكة شاسعة واسعة لكنه كان شديد اللطف متواضعاً. كان يكلم الصغير والكبير بمودة، طيب القلب، صبوراً، طويل الأناة، متسامحاً، طاهر السريرة، وكريم الأخلاق، وحسن العشرة لخواصه وأعوانه، أدخلهم في صحبته وعاملهم بإحسان. شجّع كل من رأى فيه موهبة. وكان من عشاق الشعر ولذلك لطالما ألقى أمام حاشيته أبياتاً شعرية حفظها...». وأخيراً، أطلق العنان للشعراء لنظم القصائد تمجيداً له وإكراماً. والقصيدة من أصعب الأبيات الشعرية نظماً ولطالما ألقت قافيتها المحصورة بقيود صعبة الرعب في قلوب الشعراء العرب وشلّت أقلامهم في أيديهم طوال قرون.[1]

بعد مرور ثلاث سنوات على موت صلاح الدِّين، نُقل جثمانه من القلعة إلىٰ ضريح يقع شمال مسجد دمشق الكبير. شيّد الضريح على شكل مقام تعلوه قبة وفيها نافذة مقضّبة تطلّ على المدرسة التي أسّسها. نُقل جثمانه إلىٰ هذه

(1) أورد المؤلّف هنا ترجمة لبيتٍ في رثاء صلاح الدين أنه ملكُ العالم بأسره؛ وما استطعتُ العثور عليه.

القبة في شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة 1195م. ونقشت على رخام ضريحه الكلمات التالية:

«اللهم! فارْضَ عن تلك الروح. وافتح له أبواب الجنة فهي آخِر ما كان يرجوهُ من الفتوح»[1].

(1) في وفيات الأعيان 7/ 206 أن هذه العبارة من كلام وزيره القاضي الفاضل.

obeikandl.com